الخاتمة

لما كانت المنتديات الأدبية فى تاريخ أمتنا العربية القديم تشبه إلى حد كبير المقاهى الأدبية فى العصر الحديث، فإنه من المستساغ اعتبار هذه المقاهى هى امتداداً طبيعياً للفعل الأدبى لتلك المنتديات. ومع ذلك كان لابد للبحث عن تاريخ نشأة المقاهى وتطورها بعيدا عن النشاط الأدبى لكثير منها، لأن الحس الأدبى والثقافى لا تجتمع عليه كل المقاهي، بل أن الغَلبة لمقاهى اللهو والترفيه، ولذلك اتخذ البحث من القهوة كمشروب مقصدا لبداية التأريخ للمقاهى عامة ومن ثم الأدبية خاصة ، مثل كثير من الباحثين الذين سبقوه ؛ لأن القهوة والمقاهى لا يمكن أن ينفصلا تاريخيا لمن أراد أن يجيب على سؤال قد باتت إجابته باقتضاب من رابع المستحيلات.. ألا وهو: "لماذا يرتاد الناس المقاهي؟؟".

ولما تعددت أنشطة وفنون وآداب المقاهى فى الماضي، كذلك تعددت فى الحاضر، كذا ستتعدد فى المستقبل، إن شاء الله تعالى. وكما اندثر بعضا منها فى الحاضر، سيندثر بعضا أو كثيرا منها فى المستقبل أيضا، خاصة مع انتشار المقاهى المتوافقة مع قيم العولمة

الجديدة. ومن الممكن اعتبار هذا الأمر لمن يملك إرادته من قبيل الفرص التى تجعلنا نستطيع فرض مصريتنا عليها، كما أن فيها من التحديات التى من الممكن أن تطمس بعضا من هويتنا لصالح هوية اللا مكان التى تدعو لها تلك العولمة.

وعند تلامس اهتمامات فروع العلوم الإنسانية بموضوع المقاهي، تماسَّت اتفاقاً مع كثير من تصورات الوجدان الشعبى لذلك، خاصة فى الفعل السياسي. بل إن تعامل الأمريكى "ستيوارت لين آلن" مع مشروب القهوة كقوة محركة للتاريخ ليتوافق مع تصور الوجدان الشعبى بقوة المقاهى فى تسيير الحياة السياسية والاجتماعية وأحيانا الاقتصادية، وهذا الذى يجعل كل المرشحين السياسيين يتترسون بالمقاهى عند تترسهم بالناس لمحاولة كسب تأييدهم. كما بات مؤكداً لدى أى راصد تاريخى أن المقاهى كانت ولازالت تسبب صداعاً لا ينفك بسهولة عن أدمغة الأنظمة التى تنشد الاستقرار الأمني.

ولما استقر فى وجدان الكاتب عظم أثر المقهى كمكان على إبداع الأدباء والمثقفين، استقر عنده كذلك الاعتقاد بريادة "نجيب محفوظ" لظاهرة المقاهى فى واقعه الحياتي، وكذا فى مؤلفاته الأدبية أيضا والتى تتمحور أغلبها حول المكان، وكذا تتمحور علاقته بالمكان حول الحارة والمقاهى اللذين تثريان أدبه العالمى بالشخصيات المتجددة فى وقت درامى محدود زمنيا. فالمقهى عنده صورة مصغرة عن المجتمع تتجسد فيها علاقته بالهوية التى يعبر عنها بوضوح وجلاء فى شخصيات المقاهى المتعددة.

وبرصد ظاهرة المقاهى التى ابتدأت شرقا فى العالم العربي، سنجد أنها نَمت وترعرعت وانتشت وساهمت فى حركة التاريخ فى العالم الغربي، فكان من نتاج تزاوجها مع طاقات البشر فى الغرب ثورات وحركات سياسية وأدبية وتيارات فكرية أسهمت فى إثراء الإنسانية كلها. ومما نتخيله فى ذلك أن معالجة موضوع المقاهى فى الغرب لا يستقيم بحال ما لم يتم حط الرحال لبرهة على مقاهى باريس، تلك العاصمة الساحرة الموصوفة بـ"عاصمة المقاهى فى العالم". ثم بالتعريج على الظاهرة فى كل الدول العربية تنبلج لدينا حقيقة ظاهرة جليّة، ألا وهي: بروز المقهى على سطح المجتمع العربى كمؤثر ثقافى لا يمكن تجاهله، خاصة فى مصر التى ارتبطت بها الحركات التجديدية المناهضة للجمود الفكري، كما كان لها دور لا ينكر فى التغيير السياسى أيضا.

وامتداد الظاهرة فى القاهرة الكبرى والعواصم العربية الكبرى كان له امتدادات أخرى فى باقى الأقاليم العربية، وقد اشتهر منها الكثير من المقاهى التى نافست مقاهى العواصم، ولكن يبقى لـ"مقهى المسيري" بدمنهور فضل السبق فى العطاء والتأثير، حيث لم يمتد أثره خارج حدود المكان فحسب، ولكنه امتد زمانا ليسرى كروح تشع تنويرا خلال الأزمان وعبر الأجيال المتعاقبة. وكان من نتاج تلك الظاهرة الفريدة التى تضافر فيها "المكان" و"الزمان" و"الإنسان" ظاهرة أخرى أكثر وضوحا، ألا وهى تميز واضح لرواد تلك الجامعة الأهلية التى رفعت راياتها فى تلك المدينة القديمة.

ولم تقتصر أنشطة "مقهى المسيري" بدمنهور على الفعل الأدبي، بل تجاوزته إلى كثير من الأنشطة السياسية والاجتماعية ورعاية للفنون وتنمية الموارد البشرية، وكذا التنمية الشاملة بالثقافة جماهيريا. وكذا قد استقر فى عقل ووجدان الكاتب عظم فضل الدور الإيجابى لحركة قامة سامقة مثل "عبد المعطى المسيري" داخل حيز الزمان والمكان مما كان من نتاجه المساهمة فى إنتاج بيئة ثقافية متميزة تساعد بنسبة ما كدالة فى الإبداع تميز منطقة البحيرة عن غيرها بفضل الفعل الثقافى الحضارى لوجود "مقهى المسيري" بهذه المنطقة.

ثم أنه بالبحث والتقصي؛ قد بات تحت يدى ثروة أدبية هائلة من منتجات أدبية وفكرية وثقافية متأثرة تأثيرا مباشرا بالأستاذ "عبد المعطى المسيري" ومقهاه الشهيرة؛ من كتابات نادرة للأستاذ عبد المعطى نفسه، وكتابات لكثير من أساطين الفكر فى زمانه، تؤكد تلك لكتابات على موهبة وتمكن وتفوق ذاك "القهوجي" الذى شهد له عميد الأدب العربى وآخرين، ومن الغربيين المستشرق "أغناطيوس"، وكذا الكثير من زملاءه، ناهيك عن معظم تلاميذه الذين يملئون الصحف والمجلات والإذاعة والتليفزيون.

وتبقى فى ثنايا بحثى واستقصائى أمر فى نفسى أود أن أبوح به.. ألا وهو: لقد ثبت عندى واستقر فى وجدانى أن "الثقافة" و"الوطنية" و"الانتماء" وبالتالى "الهوية" منبعها الأقاليم أو على الأقل أحد أهم روافدها، لأن الانطلاق الحضارى لابد وأن ينبع من الذات الحضارية،

والذات الحضارية لا تنبع إلا من المكان. فاحتكار العاصمة للثقافة الذى سماه الأستاذ عبد المعطى (الإقطاع الثقافى المسيطر في القاهرة) - فى رسالته الشهيرة للرئيس "جمال عبد الناصر" - لا يمكن أن يؤدى نصف أو جزء من نصف ما يمكن أن تقوم به الأقاليم من ذلك، خاصة فى موضوع الانتماء أو الهوية. ذلك أن الانتماء يحتاج لمكان جزء من كل يحن الإنسان إليه، أى أن المكان الذى يمثل الإنسان فيه هويته هو أصغر وحدة مدنية (القرية أو الحي)، لأن ذلك من دواعى الإنسانية التى ينشدها المسيرى أن ينتمى الإنسان لعائلته، وللحى الذى نشأ فيه، وللمدينة أو المركز الذى يحوى هذا الحي، وللمدينة الحاضرة التى إليها يسعى ويعيش فى كنف تأثيراتها الثقافية والاجتماعية والإنسانية عامة، وللإقليم أو المحافظة الأم، وفوق كل ذلك فى دائرة أكبر ينتمى لمصر كلها، وللعروبة فى دائرة أوسع، وهكذا.. إلخ.

وهذا الأمر يدرأ ويفكك الحالة المحتقنة المفتعلة فى تعارض انتماء الفرد للدولة مع انتمائه للأمة. حيث لا تعارض بين الانتماء لدوائر الصلة بين الأرحام (فإخوتى أقرب إلى من أولاد عمي، وكذا أولاد خالى وأولاد عمى أقرب من باقى أقرباء العائلة، وهكذا..). بل إن من دوائر الصلة أيضا القربى بالجوار، فالجار القريب له من الصلة وبالتالى الانتماء ما لا يتحقق للجار البعيد، فالشارع الذى أقطنه أقرب إلى من أى شارع فى الحي، والحى أقرب إلى من أى حى فى المدينة أو القرية، والمدينة أو القرية أقرب إلى من المدينة الأم (المدينة الحاضرة)، والمدينة الأم أقرب المدن فى محافظتى أو إقليمي، ومحافظتى أو إقليمى أقرب إلى من أى محافظة أخرى فى بلدى مصر، ومصر أقرب إلى من كل أقطار

الوطـن العربـى والإسـلامي.

بـل إنـه مـن الممكـن القـول بـأن كل دائـرة مـن دوائـر الانتمـاء السـابقة لهـا أصولهـا وقواعدهـا التى تجعلهـا لا تتعـارض مـع بعضهـا البعـض، فالانتمـاء للإقليـم لا يتعـارض مـع الانتمـاء للعائلـة، والانتمـاء للعائلـة لا يتعـارض مـع الانتمـاء للأسـرة، وهكـذا. بـل إنـه حـتى فـى الفكـر الإسـلامى يقولـون: إن العبـادات هـى إحـدى أهـم آليـات التواصـل بـين النـاس بعضهـم البعـض.. فمثـلا يقولـون أن "صـلاة الجماعـة" فـى المسـجد آليـة للتعـارف ومـن ثـم الانتمـاء لدائـرة الحـى الـذى تعيـش فيـه.. و"صـلاة الجمعـة" آليـة للتعـارف ومـن ثـم الانتمـاء للمنطقـة الأكبـر مـن الحـى الـذى تتبـع لـه (مدينـة أو قريـة)- إذ أن معظمهـم يقـررون: أن الجمـع لا تصلـح إلا فـى المسـاجد الجامعـة الكبيـرة و"شـهر رمضـان" آليـة للتواصـل بـين كل أفـراد القطـر أو مجموعـة الأقطـار المحيطـة ومـن ثـم الانتمـاء، إذ أن النـاس يصومـون معـا ويقومـون معـا ويفطـرون معـا ويحتفلـون بالعيـد معـا.. و"الحـج" آليـة للتواصـل والتعـارف ومـن ثـم الانتمـاء للأمـة الإسـلامية فـى شـتى البقـاع.. فهـل تعارضـت أيٌّ مـن هـذه الانتمـاءات السـابقة مـع بعضهـا البعـض.. أم أنهـا دوائـر للإنسـانيات المشـتركة لا تعـارض بينهـا.

لـذا لمـا بعـث "عبـد المعطـى المسـيري" للرئيـس "جمـال عبـد الناصـر" بشـكواه مـن عـدم الاهتمـام بثقافـة الأقاليـم ومبدعيهـا وقصـر الاهتمـام علـى القاهـرة وأدبائهـا، فـكان مـن الرئيـس أن أوفـد "أنـور السـادات" عضـو مجلـس قيـادة الثـورة ورئيـس تحريـر جريـدة الجمهوريـة حينـذاك ليتعـرف علـى مشـاكل أدبـاء دمنهـور الثقافيـة، وزار السـادات "مقهـى

المسيري" وحضر إحدى الندوات الثقافية التى أقيمت خصيصاً بهذه المناسبة وسلمه السادات رسالة من جمال عبد الناصر يعبر فيها عن مدى إعزازه وتقديره للدور الرائد الذى يقوم به فى خدمة الوطن.

وفى نهاية النهاية أتلمس من المكان الذى احتوى ذاك الزمان العبقرى الذى حوى حالة "مقهى المسيري" الثقافى أن يجود علينا بمثل حركة صاحب المقهى الأستاذ الأديب "عبد المعطى المسيري" يرحمه الله ويرحمنا بعده.. كذا أتلمس من نفسى أن أحذو حذو المسيريين (عبد المعطى وعبد الوهاب) فيما كانا يفعلان.. فاللهم تقبل منى الصالح فيما أبغيه من نهضة تنموية لبلدى تبدأ من زاوية الفكر والثقافة وتمتد إلى الحضارة والعمران كنتيجة طبيعية للفعل الثقافى الذى لابد وأن ينبع من الذات.. ثم الصلاة على الحبيب.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كامل رحومة
دمنهور فى ٢٥ يوليو ٢٠١٥م.